بناء الشخصيات في القصة القرآنية (دراسة تحليلية لنماذج مختارة)

[1]خالد محمد عبد الله الشامي*
[1]جامعة صنعاء (اليمن)

Building characters in the Quranic story (Analytical study of the selected models)

[1]Khaled Muhammad Abdullah Al-Shami *
[1] https://orcid.org/0009-0007-11427746
[1] Sana'a University (Yemen)

تاريخ الاستلام: 03 / 12 /2023 تاريخ القبول: 12 / 01 / 2024 تاريخ النشر: 01 / 03 / 2024

الملخص:

يكتسب عنصر الشخصية في القصة القرآنية أهميته دون بقية العناصر الأخرى، من حيث حضوره في بنية القصة القرآنية، وبنائه المتنوع، وما يكسب هذا التنوع والحضور أهميته، هو واقعية هذا السرد الذي نتعامل معه وصدقه التاريخي، والذي يجعل لهذا التنوع وظيفة جمالية ومعرفية تكمن في إلقاء الضوء على زوايا مجهولة في هذا العالم الذي يعيش فيه الإنسان، وفي منح القارئ الرؤية العميقة والخارجة عن المألوف لغيره من المخلوقات، ومن ثم فإن الإطار المنهجي لهذه الدراسة سيعتمد على المنهج الأسلوبي الذي يعنى برصد العلاقات وطرق السرد القرآني في تشكيله.

وتتمثل مشكلة الدراسة في بيان كيفية يتم بناء الشَّخصيات وتقديمها في القصص القرآني، وأهداف الدراسة: الكشف عن طرق وأساليب السرد القرآني في بناء الشخصيات في القصص القرآني، وقد توصلت له الدراسة أن التشخيص في القصة القرآنية يكشف عن أبرز السمات الداخلية التي تتسم بها الشخصية والتي تكشف عن البعد العلمي والمعرفي.

كلمات مفتاحية: بناء.، الشخصية.، القصة.، القرآنية.، دراسة تحليلية.

Abstract:

The personality element in the Qur'anic story acquires its importance over the rest of the other elements, in terms of its presence in the structure of the Qur'anic story, and its diverse construction, and what gives this diversity and presence its importance is the realism of this narrative that we are dealing with and its historical truthfulness, which gives this diversity an aesthetic and cognitive function that lies in presenting. Therefore, the methodological framework of this study will depend on the stylistic approach, which is concerned with monitoring the relationships and methods of the Qur'anic narrative in its formation.

What the study concluded is that the diagnosis in the Qur'anic story reveals the most prominent internal traits that characterize the personality, which reveal the scientific and cognitive dimension.

Keywords: Personality; structure; Stories; Quran; Analytic study.

* المؤلف المرسل.
* Corresponding author.

مقدمة:

"الشخصية هي كل مشارك في أحداث الحكاية، سلبًا أو إيجابًا، أمَّا من لا يشارك في الحدث فلا ينتمي إلى الشَّخصيات"(1) ويكتسب هذا العنصر– بعد عنصر الأحداث – أهميته دون بقية العناصر الأخرى، من حيث حضوره في بنية القصة القرآنية، ومن حيث بنائه المتنوع، فإلى جانب الشَّخصيات البشرية تحضر شخصيات من أنواع أخرى غير بشرية، كالملائكة والجن أو الحيوان، وهي إن لم تكن شخصيات مركزية تدور حولها الأحداث، إلاّ أنَّها ذات فاعلية في نموّ الأحداث، وفي إعطاء القصة حركتها الحية والحيوية. فشخصية الطائر - على سبيل المثال - في قصة سيدنا سليمان (الهدهد) أو في قصة ابني آدم (الغراب)، لم تكن مجرد (شخصية حيوانية) يعتني بطل القصة بتربيتها؛ ليعطي وجودها انطباعًا حول اهتماماته وثقافته وطريقته في الحياة، ولكنها تحضر - بأفعالها أو أقوالها - وتشارك في تحريك الحدث ونموه، وهذا ما ينطبق على بقية الشَّخصيات غير المرئية (كالملائكة والجن والشياطين) .

وما يكسب هذا التنوع والحضور أهميته، هو واقعية هذا السرد الذي نتعامل معه، وصدقه التاريخي، والذي يجعل لهذا التنوع وظيفة جمالية ومعرفية تكمن في إلقاء الضوء على زوايا مجهولة في هذا العالم الذي يعيش فيه الإنسان، وفي منح القارئ الرؤية العميقة والخارجة عن المألوف، لغيره من المخلوقات، التي تشاركه تجاربه وقصصه في هذه الحياة. أمَّا عن الشَّخصيات البشرية في القصة القرآنية، وهي مدار حديثنا، فإنَّ "كل قصة هي قصة شخصيات"(2) هكذا يقول (إيف رويتر)؛ معبرًا عن أهمية هذا العنصر الذي يجسد الأفكار والمواقف ووجهات النظر التي يتلقاها القارئ ويتفاعل معها.

ومع كون (الحياة) و(الإنسان) هما ميدان هداية القرآن الكريم، والشخصيات في القصص القرآني هي نماذج حقيقية تقدم في موضع القدوة والاعتبار، فإنّ القصة القرآنية تتضمن العديد من النماذج البشرية التي تمثّل القدوة والمثال؛ كشخصيات الأنبياء والمرسلين (عليهم السلام) وغيرهم من أعلام الهدى والصالحين، كمؤمن آل فرعون، وفتية الكهف، وذو القرنين، وطالوت.. كما تتضمن شخصيات أخرى تمثل نماذج الشر والطاغوت كشخصية فرعون، وقارون، والملك - في قصة سيدنا إبراهيم..

وفي جميع الأحوال فإنَّ القاص - سبحانه وتعالى – يرصد لنا أفعالها وأقوالها ويجلو سماتها المختلفة، بعدة طرق وأساليب، لنتمكن على ضوء ذلك من تقييم أنفسنا نحن، وتقييم واقعنا ومواقفنا في هذه الحياة، وبهذا تنهض القصة القرآنية بوظيفتها التعليمية والتربوية.

فكيف يتم بناء الشَّخصيات وتقديمها في القصص القرآني؟ وما هي طرق وأساليب السرد القرآني في ذلك؟

تُبنى الشَّخصيات داخل القصة القرآنية من مجموعة من السمات والصفات التي تعطيها وجودها المستقل والمميز، والتي تسمح لنا بالتعرف عليها من ثلاثة أبعاد رئيسة:

- البعد الفيزيقي: والمتعلق بهيئتها المرئية، وصفاتها الجسدية وكل ما يتعلق بمظهرها الخارجي.
- البعد النفسي: ويتعلق بسماتها الفكرية والوجدانية، ومشاعرها وأفكارها.
- البعد الاجتماعي: ويتعلق بانتمائها وثقافتها ومنزلتها ووظيفتها.

وأسلوب السرد القرآني في تقديم المعلومات حول هذه الجوانب المختلفة منها، يكون مباشرًا أو غير مباشر، وذلك من خلال "**التشخيص**" الذي يُعرف بـ "تقنية تأليف الشخصية"(3) أو "مجموعة التقنيات الخاصة المستعملة في بناء الشخصية، ويمكن أن يكون التشخيص مباشرًا بدرجة أو بأخرى، [حيث] يقوم الراوي بعرض سمات الشخصية على نحوٍ يُعوّل عليه، أو تقوم الشخصية ذاتها بهذه المهمة، او يتم ذلك عبر شخصية أُخرى.

أو يكون التشخيص على نحوٍ غير مباشر؛ يستنبط من أفعال الشخصية وردود أفعالها وأفكارها وانفعالاتها.. إلخ. ويمكن أن تُخصص فقرة قائمة بذاتها لعرض الصفات الأساسية للشخصية أو يفضل تقديمها على مراحل، كما يمكن أن يؤكد على ثباتها أو تحولها وتقلبها، ويمكن أن يعتمد التشخيص على التنميط (جعل الشخصية تتسق مع أحد الأنماط) أو يعتمد على التصوير الفردي"(4). ولا خلاف بين النقاد والدارسين حول أهمية دراسة الشخصية في الأعمال الأدبية والسردية، غير أنَّ طرقهم تختلف في ذلك: فمنهم من يقتصر على دراسة الوظيفة والدور التي تؤديها الشَّخصيات [بروب] مع إهمال السمات الذاتية والشخصية لها (5) في حين يرى البعض الاهتمام بالجانبين [غريماس] على حدٍّ سواء، و" لا يرى أن هناك تعارضًا بين التحليل الوظيفي والتحليل الوصفي، بل يوجد تكامل أساسي بينهما"(6) وسوف تتناول هذه الدراسة أساليب "التشخيص المباشر" وطرقه.

- **التشخيص المباشر:** في هذا التشخيص يتم الإعلان عن الشَّخصيات والتصريح المباشر بسماتها وصفاتها، حيث يقوم السرد بتقديم المعلومات المباشرة التي تسمح بالتعرف عليها وتساهم في بنائها، ويمكننا رصد هذا الأسلوب المباشر في بناء الشَّخصيات، واكتشاف تشكلاته الخاصَّة ووظائفها الجمالية، وفق ثلاثة مستويات رئيسة داخل القصة القرآنية:

الأوَّل: التشخيص عن طريق القاص سبحانه وتعالى.

الثَّاني: التشخيص عن طريق الشخصية نفسها.

الثَّالث: التشخيص عن طريق إحدى الشَّخصيات الأخرى.

المطلب الأول: التشخيص عن طريق القاص:

التشخيص هو إحدى الوظائف الرئيسة التي يقوم بها القاص سبحانه وتعالى، فهو من يتولّى، بالدرجة الأولى، تقديم الشَّخصيات بشكلٍ مباشر، وتسليم القارئ المعلومات المتعلقة بسماتها وصفاتها، كما هو الحال في التعريف بشخصية سيدنا يوسف (عليه السلام)، وذلك في قوله تعالى: {وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ}[يوسف: 22] تعطينا هذه الآية الكريمة تشخيصًا كليًا يتعلق بالمرحلة العمرية للشخصية {بَلَغَ أَشُدَّهُ}، كما يكشف هذا التشخيص عن أبرز السمات الداخلية التي تتسم بها هذه الشخصية والتي تكشف عن البعد العلمي والمعرفي لها {آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا} . وهي، كما نرى، معلومات تم استلامها من قبل القاص سبحانه وتعالى، والذي يعلّق على هذا الوصف بقوله {وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} ليعطي هذه المعلومات بعدًا آخر، يتجاوز الشخصية ذاتها والتعريف بها، وبما يمنح القارئ الخبرة والمعرفة بالأسباب والعوامل التي تؤدّي إلى اكتساب الناس عمومًا هذا البعد العلمي والمعرفي. والإعلان المباشر عن الشَّخصيات، والتصريح بسماتها وصفاتها - من قبل القاص سبحانه وتعالى – عادةً ما يتشكّل ضمن أنماط رئيسة داخل القصة القرآنية، فيما يلي إيضاحها:

1- التشخيص باستخدام النعوت:

(النعت) مصطلح يرادف (الوصف)، وقد جاء في تعريف ابن منظور له "النعت: وصفك الشيء، تَنْعتُه بما فيه، وتبالغ في وصفه"(7)، والراصد لأساليب بناء الشَّخصيات في القصص القرآني لا يلبث أن يلحظ الدور البارز للنعوت، على مستوى تشكيل البنية اللغوية للتشخيص، لاسيما مع هذا التشخيص المباشر من قبل القاص - سبحانه وتعالى – حيث يتم توظيف أنواع النعوت لوصف الشَّخصيات والتعريف بشيء من سماتها، ومن ذلك:

أ- النعت بالمفردة: يتم التعريف بالشخصية وتقديمها من خلال (النعت بالمفردة)، مثال ذلك نعت / وصف داوود - عليه السلام – بـ(الأوَّاب) التي تعني دائم الرجوع والإنابة إلى الله، وبما يكشف عن البعد الإيماني لهذه الشخصية، وصلتها وقربها من الله: {اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ} [ص:17]

ب- النعت بالجملة: كما في قوله تعالى: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا * وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا} [مريم: 56، 57] إذ جاء النعت بالجملة الفعلية {رَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا} للتعريف بمنزلة هذه الشخصية ومكانتها، إضافة إلى النعوت المفردة في الآية السابقة (صدّيق، نبي).

ج. النعت بشبه الجملة: كما في قوله تعالى في قصة سيدنا موسى (عليه السلام): {وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ} [غافر: من الآية 28] فمع وصف/ نعت هذه الشخصية بالمفردة (مُّؤْمِنٌ) جاء النعت الثاني بشبه الجملة {مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ} ليقدم معلومات عن الموقع الاجتماعي لهذه الشخصية، ويبيّن في الوقت نفسه أن موقفها في الدفاع عن موسى (عليه السلام) والتصدي للتآمر الحاصل لقتله، كان من موقعها داخل المحيط الأسري لفرعون.

د. النعت بـ(ذو): تستخدم (ذو) - بمعنى صاحب - لنعت الشَّخصيات والتعريف بها من قبل القاص سبحانه وتعالى، كقوله تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا}[الكهف: 83] وقوله تعالى {ذَا الأَيْدِ} في تقديم شخصية سيدنا داوود: {وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الأَيْدِ}[ص: من الآية 17] والتي تعني صاحب القوة، سواء أكانت القوة في دينه كما جاء في بعض التفاسير "ذي القوة في دينه"(8)، أم كان هذا النعت في مقام وصف جوانب خارجية لهذه الشخصية، وما تحظى به من قوة مادية وعسكرية نتيجة تسخير الحديد في الصناعات، لاسيما العسكرية، كما دلّت على ذلك الآيات الأخرى {وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ * أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ}[سبأ: من الآية 10، ومن الآية 11] كما جاء وصف فرعون بـ{ذِي الأَوْتَادِ} في قوله تعالى {وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ}[الفجر: 10] وقيل أنَّ {الأَوْتَادِ} إشارة إلى الأهرام التي في مصر، شبهت بالجبال، أو أنَّها أوتاد من الحديد التي كان يوتد بها من يعذبه في يديه ورجليه، وهو الأنسب للسياق في عاد وثمود وفرعون كلهم (9) كذلك في نعت سيدنا يعقوب – عليه السلام- { لَذُو عِلْمٍ}: {وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ}[يوسف: 68] وتتعدد الشواهد حول استخدام أنواع النعوت عند تقديم الشَّخصيات والتعريف بها .

وإلى جانب الدور الذي تلعبه في بناء الشَّخصيات داخل القصة القرآنية، فإنَّ تقديم الشَّخصيات من خلال نعتها لا بد وأن يكشف عن موقف القاص - سبحانه وتعالى – من تلك الشَّخصيات، وذلك أنَّ من وظائف النعت (الثناء والمديح) أو (الذم والتحقير) كما يقول ابن يعيش "وقد يجيء النعت لمجرد الثناء والمدح، لا يراد به إزالة اشتراك ولا تخصيص نكرة، بل لمجرد الثناء والمدح، أو ضدهما من ذم وتحقير، وتعريف المُخاطَب من أمر الموصوف مالم يكن يعرفه "(10) وهو ما يكشف عن الوظيفة التي تنهض بها النعوت على مستوى بناء الشَّخصيات، وعلى مستوى علاقة القارئ أيضًا بتلك الشَّخصيات، ذلك أنَّ موقف القاص - سبحانه وتعالى – منها له أهميته في بناء أُفق التلقي لدى القارئ، وفي توجيه علاقته بتلك النماذج والشخصيات وتقييم أفعالها وأقوالها .

2- التشخيص في إطار التعليق على الأحداث.

ومن أنماط هذا التشخيص المباشر وأساليبه أن يقوم القاص سبحانه وتعالى بتقديم المعلومات عن إحدى الشَّخصيات والتعريف بشيء من سماتها، في إطار التعليق على الأفعال الصادرة منها أو الأحداث والوقائع المتعلقة بها، كما جاء تقديم شخصية إبراهيم (عليه السلام) في قصته مع ضيوفه المكرمين، في (سورة هود)، فقال سبحانه وتعالى: {فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ * إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ * يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ}[هود: 74 – 76] ففي هذه الآيات الكريمة نلحظ أمرين:

الأمر الأوّل: وجود هذه الوحدة التشخيصية {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ} التي قدَّمت معلومات تتعلق بالجانب النفسي والأخلاقي والديني لشخصية إبراهيم: فـ(الحليم) هو الذي " لا يعجل على معاقبة المسيء إليه والانتقام من عدوه. و{أَوَّاهٌ} كثير

التأوَّه حزنًا؛ إمَّا على ما فاته مما نواه من عمل الخير ولم يدركه - لأنّ المؤمن ينوي كثيرًا من الخير، ويتلهف على ما فاته كما في الحديث - وإمَّا لفساد عباد الله وطاعة أكثرهم للشيطان. {مُّنِيبٌ} راجع الى الله في كل أحواله"(11)

الأمر الثَّاني: يتعلق بالسياق الذي جاء هذا التشخيص المباشر خلاله، والذي قدّم لنا هذه المعلومات عن الشخصية في إطار التعليق على ما يحدث من قبلها.

ولنا أن نلحظ الآتي: يخبرنا السرد القرآني - في الآيات السابقة - أنَّ سيدنا إبراهيم (عليه السلام) بعد أن ذهب عنه الروع وجاءته البشرى (بقدوم إسحاق ويعقوب)؛ راح يجادل ضيوفه بشأن العذاب الذي أُرسلوا به إلى قوم لوط {فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ}. كما يخبرنا أيضًا كيف جاء ردّ الضيوف عليه بأسلوب حاسمٍ {يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا.. إلخ} وكأنَّه لم يكن من المفترض به أن يجادل لرد الأمر الذي قضاه الله تعالى.

وعندما تدخّل القاص - سبحانه وتعالى – في مسار هذه الأحداث، معلّقًا على ما يحدث من جهة سيدنا إبراهيم، بقوله {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ} فإنَّ وظيفة هذا التشخيص المباشر لا تقتصر على التعريف بالشخصية وحسب، بل الكشف عن الدوافع الحقيقية لموقفها، وإزالة اللبس الذي قد يحدث حول هذا الفعل الصادر منها، ليتضح لنا من خلال هذه المعلومات التي قدّمها القاص عن الشخصية، أنَّ جداله (عليه السلام) لردّ العذاب النازل بقوم لوط لم يكن بدافع مودته للقوم الظالمين، ولا موالاتهم ومودتهم والركون إليهم، لا سيما وقد نُهي المؤمنون عن ذلك، وحذر الله منه في أكثر من موضع، كما في قوله تعالى {لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ}[المجادلة: من الآية 22] وما يفسر حقيقة موقفه هي تلك السمات والطباع التي تدخّل القاص سبحانه، وكشفها لنا، ليتضح أنَّ جدله عن أولئك كان على علاقة بسمة (الحلم) التي يمتاز بها، فهو بطبعه لا يعاجل خصمه بالعقوبة، وهو (أوَّاه) كثير التأسف على الآخرين، وذلك من رحمته وإشفاقه عليهم، وهو منيب: رجَّاع إلى الله في كل أمره، وكل هذه الصفات التي تم تشخيصها، في هذه اللحظة السردية، من شأنها أن تكشف عن الدوافع الحقيقة لما تقوم به هذه الشخصية، ويتكرر هذا التشخيص والتقديم لشخصية سيدنا إبراهيم (عليه السلام)، كما في سورة التوبة: {وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ}[التوبة: من الآية 114] ثم نجد القاص سبحانه وقد علّق على ما حدث من إبراهيم، بقوله: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ}[التوبة: من الآية 114] وبالتالي فإنَّ التشخيص - في إطار تعليق القاص سبحانه على الأحداث - لا يقتصر على بناء الشخصية والتعريف بها، لكنه في الوقت نفسه يلقي الضوء على بُعد من أبعاد هذا الحدث، ويجلو أمام القارئ الدوافع الخفية (الداخلية) التي تحرك الشَّخصيات .

كذلك يأتي التشخيص المباشر للشخصيات الجماعية، في إطار تعليق القاص – سبحانه وتعالى - على الأفعال والأحداث المتعلقة بها، كما جاء وصف قوم فرعون بالـ{فَاسِقِينَ} تعليقًا على ما حدث منهم؛ من طاعة وانقياد لفرعون، فقال سبحانه وتعالى: {فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ}[الزخرف: 54] ولئن كان النعت بالفسق - وهو" الخباثة والفجور"(12) – قد قدَّم تشخيصًا لسمات تتصف بها هذه الشخصية الجماعية، فإنَّ هذه السمات هي التي تُفسر لنا في الوقت ذاته: لماذا وكيف حدثت منهم الطاعة لفرعون !؟ والإعراض عن موسى (عليه السلام).

3- التشخيص مطلع السرد:

ومن أنماط هذا التشخيص المباشر ما يأتي في مطلع السرد القصصي القرآني، إذ يكون تقديم الشخصية والتعريف بها، هو نقطة البداية التي تنطلق منها عملية السرد. وفي هذه الحالة قد تأتي الأحداث المسرودة على أعقاب هذا التشخيص؛ لتضيف جوانب أُخرى تتعلق ببناء هذه الشخصية والتعرّف عليها، أو من أجل تأكيد التطابق التام بين السمات - المعلن عنها

مطلع السرد - وبين ما ستقوم به هذه الشخصية، وبهذا "تكون أعمال هذه الشخصية وردود فعلها الناتجة نوعًا من التكملة والتنمية التي نستطيع تذوق مقدار صحتها بمقارنتها مع الصورة الأصلية "(13).

من أمثلة الحالة الأولى ما جاء في سورة مريم، حيث يبتدئ السرد بالإعلان المباشر عن شخصية إبراهيم (عليه السلام)، والتقديم له بوصفه (صديقًا) و(نبيًا) مرسلًا من الله لهداية الناس: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا}[مريم:41] ثم تأتي القصة لتضيف جوانب مكلمة، فهي تُلقي الضوء على أفعال هذه الشخصية، وقيامها بمهامها في المراحل الأولى {وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ}[الشعراء: 214] وعلى مستوى المحيط الاجتماعي القريب لها: {إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا * يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا * يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا * يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا}[مريم: 40 - 43] ويبدو أنَّه (عليه السلام) كان يأمل في تلك المراحل الأولى من دعوته أن يجد في شخص أبيه المعين والناصر له ولدعوته وسط قومه، وقد بيّنت القصة أن دعوته لأبيه وُجهت بالرفض والوعيد: {قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا* قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا * وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاء رَبِّي شَقِيًّا}[مريم: 44 - 46] وأحيانًا تظل الصورة المُقدَّمة لإحدى الشَّخصيات – مطلع السرد – صورةً ضبابية، غير واضحة تمامًا: {وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا }[الكهف: 38] وفي هذه الحالة فإنَّ بناء الشخصية يتم على نحوٍ متدرج، إذ تتنامى معرفتنا بجوانب مختلفة منها نتيجة سرد متسلسل لمجموعة من الحوادث، فكل ما تضمنه السرد – على أعقاب هذا التقديم – من رحلات قامت بها وأماكن استطاعت بلوغها ومهام كانت تنجزها في كل مرة، يلعب دورًا مهمًا في اكتمال بنائها واتضاح صورتها شيئًا فشيئًا. كذلك عند ظهور (العبد الصالح) على مسرح الأحداث، وتقديم القاص سبحانه هذه الشخصية على النحو الآتي: {فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا} [الكهف: 65] ففي هذا التقديم لا يتم إبراز الشخصية بشكلٍ تام. وشيئًا فشيئًا فإنَّ الأحداث ستكشف عن جوانب مختلفة منها؛ تتعلق بالدور المناط بها، وطبيعة العلم الذي خصها الله به.

أمَّا في الحالة الثانية، فيبتدئ السرد بتقديم وصف مباشر للشخصية، ثم تأتي أحداث القصة دون أن تضيف جوانب جديدة لها، إذ تكمن وظيفة السرد في تأكيد التطابق التام بين ما تم الإعلان عنه - مطلع السرد - وبين ما ستقوم به من أفعال وردود أفعال داخل القصة (14) ويكون التشخيص مطلع السرد قد كشف للقارئ عن مقصدية القاص من وراء هذا السرد (البرهنة على سمات الشخصية المصرح بها) مثال ذلك التشخيص مطلع قصة سيدنا (سليمان والخيل) في (سورة ص)، إذ يقول الحق سبحانه وتعالى: {وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ * إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ * فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ * رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالأَعْنَاقِ}[ص: 30 – 33]وتجدر الإشارة هنا إلى أنَّ العديد من التفاسير ذهبت إلى القول أنَّ سليمان الذي كان يستعرض جموع الخيل، قد انشغل بها عن عبادة الله والإنابة إليه ساعة العشي، وذلك مع حبِّه الشديد للخيل ! وبعد أن توارت الشمس بالحجاب وانقضى وقت العشي، فقد ندم (عليه السلام) على ما فاته دون الإنابة لله، فأمر بإعادة الخيل، وقام بقتلها والانتقام منها!!

ومع قراءة كهذه يتعذر علينا إيجاد أي تطابق بين تقديم القاص لهذه الشخصية، مطلع السرد، بالثناء ووصفه بالأوَّاب (أي الرجَّاع والمنيب إلى الله)، وبين أفعالها (وقد انشغلت بالخيل عن العبادة والإنابة إلى الله في تلك الساعة) وردود أفعالها أيضًا تجاه ما حدث (انتقامها من الخيل على ذلك النحو دون أن يكون لها ذنب فيما حدث)!! فما حدث، وما قامت به هذه الشخصية يبدو مُخالفًا للمقصد الذي سيقت من أجله القصة! لكننا إذا أعدنا قراءة القصة، قراءةً منهجيةً تنطلق من

مكونات النص القرآني الداخلية، مع عزله - عزلًا موضوعيًا - عن المرويات الإسرائيلية التي اعتمدها المفسرون في فهم وتفسير هذه القصة، أمكننا ملاحظة الآتي:

يبتدئ السرد القرآني بالتقديم لهذه الشخصية والتعريف بها {وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ} فهو ابن داوود الذي ورث الحكم والنبوءة عن أبيه (عليهما السلام) . ثم في سياق المديح والثناء {نِعْمَ الْعَبْدُ} يُشخّص القاص - سبحانه وتعالى - الجانب الروحي والإيماني لهذه الشخصية، مؤكّدًا قربها وصلتها الدائمة بالله {إِنَّهُ أَوَّابٌ} فهو دائم الرجوع إلى الله والإنابة إليه. والابتداء بهذا الثناء وهذا الوصف يجعلنا نتوقع مسبقًا ما ستقوم به هذه الشخصية، كما يُبيَّن مقصدية القاص – سبحانه وتعالى – والهدف والمغزى (15) من وراء هذا السرد الذي يُراد به تقديم شهادة واقعية لإنابة سليمان وانقطاعه إلى الله في تلك الأوقات التي خصها الله للعبادة، ذلك أنَّ " البداية تشكل مكانًا استراتيجيًا في النص، يُحدد طريقة القراءة"(16) لذا نجد السرد - على أعقاب قوله تعالى {نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ} – يباشر تقديم أحداث هذه القصة من خلال الأداة (إِذْ) {إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ..} والتي تُفيد هنا التعليل، حيث تستخدم بمعنى (لأنه)، وهو ما يعني أن الأحداث القادمة ترتبط ارتباطًا منطقيًا بما وصفت به هذه الشخصية مُسبقًا، ويصبح تقدير الكلام على النحو الآتي:

سليمان هو نعم العبد الأوَّاب/ الرجَّاع إلى الله؛ (لأنَّه) {عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ} والعشي: هو الزمن الممتد من ساعة الظهر - وقيل من العصر - وحتى غروب الشمس وزوالها، وهو من الأوقات التي خصها الله للإنابة إليه، والانشغال بذكره وتسبيحه وتعظيمه، لا سيما الساعة الأخيرة من النهار وما قبل الغروب (17). {فَقَالَ} سليمان {إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ ربي} وهو خطاب داخلي (مونولوج) (18) يبيّن لنا حالة اليقظة والاستدراك التي انتابت هذه الشخصية، أمَّا ما جاء بعده {حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ} فهو من كلام الله سبحانه وتعالى، ولم يعد من كلام سليمان، لأنَّ اعتبار ذلك كله من كلام سليمان {إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ} يُوهم بأنَّه (عليه السلام) قال ما قال، ندمًا وتأسفًا على ذهاب الوقت وعدم إنابته لله، بعد زوال الشمس، وليس استدراكًا للأمر قبل فواته، وبهذا يتنافى التطابق بين الوصف المعلن لهذه الشخصية – مطلع السرد – وبين فعلها هنا . وعند هذه اللحظة السردية، ومع الانتقال من كلام سليمان (عليه السلام) إلى كلام القاص (سبحانه وتعالى)، والذي يُعدّ في الوقت نفسه انتقالًا من حدث داخلي إلى حدث خارجي، ومن رؤية داخلية (19) إلى رؤية خارجية، فقد ترك السرد القرآني فراغًا وفجوةً يتوجب على القارئ ردمها، وقد تشكّل هذا الفراغ نتيجة حدث محذوف وهو أنَّ سليمان بعد أن استدرك الأمر، كان قد: أمر بصرف الخيل عنه، وعاد منيبًا إلى الله حَتَّى تَوَارَتْ – الشمس - بِالْحِجَابِ.

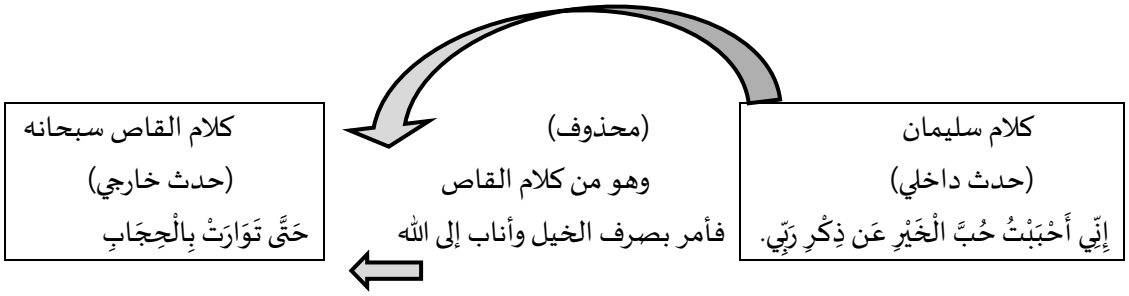

وقد اجتمعت للدلالة على وقوع هذا الحدث المحذوف، قرينتان في وقتٍ واحد (20):

الأولى قرينة حالية: ويستدل عليها من السياق، وذلك أن قصته مع الخيل تأتي في سياق الثناء ووصفه بالأوَّاب، ولا يستقيم المعنى والمقصد الذي سيقت من أجله هذه القصة، ما لم يتم تقدير هذا المحذوف على النحو الذي بيّناه .

والثانية قرينة لفظية: وذلك في قول سليمان - بعد أن توارت الشمس - {رُدُّوهَا عَلَيَّ} والذي دلّ على أنَّه (علية السلام) كان قد أمر بصرفها عنه - ليؤوب إلى الله.

فالحذف – كما يعرّفه غريماس – بأنَّه "العلاقة بين وحدة من البنية العميقة وأخرى من البنية السطحية، غير ظاهرة، ولكننا نكتشفها بفضل العلاقات التي تنطوي عليها وتشكل سياقًا لها"(21) أمَّا تأويل قوله تعالى {فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالأَعْنَاقِ} بما جاء في المرويات الإسرائيلية، وأنّه (عليه السلام) أمر بردها لكي يقوم بقطع سوقها وأعناقها، عقوبةً وانتقامًا منها على جرمٍ لم ترتكبه! فذلك معنى لا يدل عليه التشكيل اللغوي لهذا النص القرآني، لأنَّ (المسح) لو استخدم بمعنى (القطع) لما كان قد عُدّي بالباء {فَطَفِقَ مَسْحًا (بِ) السُّوقِ وَالأَعْنَاقِ} ولكان الأسلم للتعبير على قطع سوقها وأعناقها بالسيف على النحو اللاتي (فَطَفِقَ [يمسح] السُّوقِ وَالأَعْنَاقِ). وفي هذا يقول صاحب التيسير في التفسير – رضوان الله عليه – "الظاهر أنه لو كان المسح هنا عبارة عن القطع لما عدي بالباء . فالأقرب أن المسح هنا عبارة عن إمرار يده على أعناقها وسوقها لإلصاق ما في يده من ماء أو غيره، ولعل في ذلك تقوية لها لأنها معدة للجهاد في سبيل الله، والله أعلم"(22) وبهذا القراءة القائمة التي تراعي وجود حدث محذوف– ترك لنا السرد القرائن الدالة على وقوعه - تكون قصة سيدنا سليمان مع الخيل قد قدَّمت تطبيقًا للمبادئ التي أُعلنت مسبقًا {إِنَّهُ أَوَّابٌ}، وتصبح أفعال الشخصية وردود أفعالها تجسيدًا لما وصف به مطلع السرد .

المطلب الثاني: التشخيص من خلال حديث الشخصية عن نفسها.

وقد يأتي التشخيص المباشر عن طريق إحدى الشَّخصيات التي تصف نفسها بأسلوب مباشر، حيث نتلقى المعلومات التي تساهم في بنائها والتعرف عليها خلال حديثها عن ذاتها. كما هو الحال فيما حكاه الله من دعاء زكريا (عليه السلام): {قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا} [مريم: 4] فالمتكلم يقدم معلومات مباشرة عن حالته وهيئته المرئية {وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا} بحيث ترتسم في ذهن القارئ صورة شيخ كبير، يكسو البياض رأسه، وهو يمشي بخطوات مثقلة وجسدٍ ضعيف ومنحني نتيجة وهن العظام.

كذلك قد نتعرف على البعد الإيماني للشخصية الجماعية (الحواريون) والتزامها خط الإيمان والابتعاد عن خط الكفر والنفاق، من خلال وصفهم لأنفسهم بـ(أنصار الله) وبـ(المسلمين):{قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} [آل عمران: من الآية 52] وعند تحليل هذا الأسلوب التشخيصي؛ يجدر الانتباه إلى الطرق التي يتشكل من خلالها هذا التشخيص، وأنَّ الشَّخصيات غالبًا ما تُقدّم نفسها وتعلن عن سماتها في سياقٍ من السياقات التالية: (الحجاج والاقناع، الجهوزية والاستعداد، الاستفهام والتعجب، الاستعلاء والتكبر) وبهذا لا تقتصر وظائف هذا الأسلوب التشخيصي على بناء الشخصية والتعرف عليها، فثمة وظائف أُخرى مهمَّة تؤديها هذه المعلومات، وتقصدها هذه الشَّخصيات وهي تقدم/تصف نفسها. وفيما يلي إيضاح ذلك:

1-الحجاج والإقناع:

يأتي هذا التشخيص في سياق الحجاج وإقناع الآخر؛ إذ تقوم بعض شخصيات القصة القرآنية بتقديم نفسها والتعريف بشيء من سماتها، على النحو الذي يدعم دعواها.

مثال ذلك ما جاء على لسان سيدنا نوح (عليه السلام) في خطابه لقومه: {إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ}[الشعراء: 106، 107] وهو التشخيص الذي يتكرر على لسان أكثر من شخصية: {إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ}[الشعراء: 124، 125] {إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ}[الشعراء: 142، 143] {إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ}[الشعراء: 161، 162] ففي كل خطاب من هذه الخطابات كان المتكلم يصف نفسه بالـ{رَسُول} المبلغ عن الله سبحانه وتعالى، والـ{أَمِين} الذي يبلغ ما يريده الله دون زيادة أو نقصان، والهدف من تقديم هذه المعلومات هو إيضاح ألَّا غاية أو منفعة شخصية لهم مما يدعون الآخرين إليه. وهذه الظاهرة الأسلوبية المتكررة تُعزى إلى طبيعة الخطاب العربي الحجاجي الذي يعتمد اعتمادًا جوهريًا لتدعيم وتبرير ما يطرحه المتكلم، على عدّة عوامل، منها: " القيم التي يكون تمسك الناس بها قوياً، أو التي تتسم بالشمولية بسبب موالاة كثير من الناس لها"(23) وعامل آخر مهم "هو منزلة الشخصية التي تدعم قيمة ما تُطالب الناس به، وأنَّها صادقة في مطالبتها، وأنَّها بريئة فيما تطالب به من أي نفع أو مصلحة خاصة"(24) .وكما نرى فإنَّ المعلومات السابقة التي تقدمها الشَّخصيات عن نفسها {إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ} تعتمد على هذين العاملين:

- التعريف بمنزلة الشخصية، وأنَّه رسول الله إلى الناس.
- اتصافها بالأمانة، وهي من القيم التي يتمسك بها الناس ويؤمنون بها.

ونجد موسى (عليه السلام) - في حواره مع فرعون – يعطينا هذا التشخيص الداخلي الذي يكشف البعد الإيماني والأخلاقي في شخصيته:{حَقِيقٌ عَلَى أَن لاَّ أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ}[الأعراف:105] فمع هذا التضمين(25) كان (عليه السلام) يقدّم نفسه بوصفه شخصية تلتزم جانب الحق والصدق {حَقِيقٌ عَلَى أَن لاَّ أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ} ويؤكّد للآخر مصداقيته بالآيات التي جاء بها من عند الله {قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ}، فقد كان المتكلم بذلك يُقدّم الإفادات التي يقصد بها زيادة قابليته للتصديق، وعلى النحو الذي يدعم طلبه {فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ}، إذ تمثّل المصداقية عاملًا مهمًا في الحجاج والإقناع. (26) كذلك نجد سيدنا يوسف - في خطابه مع صاحبي السجن – يقدم تشخيصًا يكشف عن الجوانب المتعلقة بمعتقداته ونسبه وصلته بإبراهيم واسحاق ويعقوب (عليهم السلام): {وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ}[يوسف: من الآية 36، 38] وكل هذه المعلومات هي إفادات ذاتية قدّمها المتكلم ليدعم بها قابلية الآخر للاستجابة له، إذ كانت غايته (عليه السلام) دعوة صاحبي السجن إلى إخلاص العبودية لله وحده، وذلك قبل أن يخبرهما بتأويل رؤياهما كما طلبا منه: {يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ * يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ }[يوسف: 39، 41] وقد قدّم لنا عيسى (عليه السلام) نفسه على النحو التالي: {قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا* وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا}[مريم: 30 – 33] وقد كان هذا التشخيص هو أول ما نطق به في المهد صغيرا، يوم جاءت مريم (عليهما السلام) قومها وهي تحمله: {فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا * يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا * فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا}[مريم: 27 - 29] ونجد هذا التشخيص يقدم الإفادات التي تدحض الدعاوى والشكوك التي راح بنو إسرائيل يحيكونها حول قدوم مريم

(عليها السلام) بهذا الطفل دون زواج مسبق. وكان أوّل ما أنطقه الله هو قوله (عليه السلام) {إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ} وذلك خلاف ما زعموه من أنَّ عيسى ابن مريم (ابن الله).

2- الجهوزية والاستعداد:

وقد تقوم بعض شخصيات القصة القرآنية بالتقديم لنفسها والتعريف ببعض صفاتها وسماتها لتعطي بذلك المعلومات عن مدى استعدادها وجهوزيتها للقيام ببعض المهام والأدوار. كما في الشاهد السابق، وحين تساءل عيسى عليه السلام {قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ} [آل عمران: من الآية 52] فقد جاءه الردّ من الحواريين على النحو التالي: {قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} [آل عمران: من الآية 52] وقد أرادوا بهذا التشخيص إبداء جهوزيتهم واستعدادهم لتحمل المسؤوليات والمهام ومناصرة دعوته (عليه السلام) . وفي قصة سيدنا يوسف (عليه السلام)، وبعد ظهور براءته، وطلب الملك إحضاره إليه {ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ }[مريم: من الآية 54] فيجيب (عليه السلام): {قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ }[يوسف: 55] وقد تضمنت الآية الكريمة هذه الوحدة التشخيصية {إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ} لنتعرف من خلالها على بعض السمات التي تمتاز بها هذه الشخصية المتكلمة، على أنَّ المتكلم هنا كان يقدّم عن نفسه المعلومات التي يقصد منها إيضاح استعداده وقدرته على إدارة اقتصاد الدولة .وحين ذهبت (ملكة سبأ) لأخذ مشورة الملأ من قومها؛ بشأن الكتاب الذي جاءها من سليمان (عليه السلام) كما أخبرنا القاص سبحانه: {قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ }[النمل:32] فقد جاء ردَّهم على النحو التالي: {قَالُوا نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُوْلُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ}[النمل: 33] وقولهم {نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ} يشخّص جانب القوة (الجسدية والعسكرية) كما أنَّ قولهم {وَأُوْلُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ} - ويعني عند القتال - يُشخص لنا أيضًا امتلاك هذه الشخصية الجماعية الخبرة والممارسة في المعارك والقتال. وقد جاءنا هذا التشخيص عن طريق الشخصية نفسها التي تريد أن تقدّم إفادات عن صلاحيتها وجهوزيتها لقرار المواجهة الذي يمكن أن تتخذه الملكة. وفي الجانب الآخر، وحيث كان سليمان عليه السلام ينتظر قدومهم إليه، مخاطبًا الملأ من حوله: {قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ }[النمل: 38] نجد أنَّ التشخيص الذي يبدي حالة الاستعداد والجهوزية، يتكرر على لسان أحد الحاضرين قائلًا: {قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ }[النمل: 39] وقد شخّص لنا المتكلم حاله على النحو التالي {قَوِيٌّ أَمِينٌ}، وهو يهدف من وراء تقديم هذه المعلومات أن يبيّن صلاحيته لتنفيذ هذه المهمة .

3- الاستفهام والتعجب:

وفي سياق الاستفهام والتعجب نجد بعض الشَّخصيات في القصة القرآنية وهي تتحدث عن نفسها، لتقدم بذلك المعلومات المباشرة التي تسهم في بنائها والتعرف بها، والتي تكشف في الوقت نفسه عن تساؤلها وتعجبها من حدوث أمرٍ ما. كما هو الحال بالنسبة لزوج إبراهيم حين بُشرت بقدوم إسحاق ويعقوب (عليهم السلام أجمعين): { قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ}[هود: من الآية 72] ويتكرر التشخيص المباشر عن طريق الشخصية نفسها، في (سورة الذاريات) أيضًا: {فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ }[الذاريات: 29] والتشخيص - في الآيتين الكريمتين – الذي قدم المعلومات المتعلقة بالمرحلة العمرية والوضع الصحي لهذه الشخصية (عَجُوزٌ / عَقِيمٌ) قد جاء عن طريق الشخصية ذاتها التي كانت تبين دوافع تعجبها تجاه حدوث هذا الشيء لها .

4- الاستعلاء والتكبر:

تقدم الشَّخصيات المعلومات عن نفسها من قبيل الاستعلاء والتكبر، ما يشخّص لنا حالة العجب بالذات والتي تتسم بها هذه الشَّخصيات، كما هو حال إبليس اللعين الذي رفض السجود لآدم (عليه السلام): {قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ

أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ}[الأعراف: 12] في سياق الاستعلاء والتكبر؛ تتداخل أساليب التشخيص المباشر، إذ تقوم هذه الشخصية المتكلمة بإعطاء معلومات عن نفسها {خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ} كما تعطي معلومات عن غيرها من الشَّخصيات {وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ}، وهي بإجراء هذه المقارنة تريد الإيحاء بفرادتها في الخلق.

كما هو حال فرعون الذي سطر لنا القرآن الكريم قوله التالي: {أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ}[الزخرف: من الآية51] ويجدر الانتباه في هذا السياق إلى أنَّ الشَّخصيات غالبًا ما تعطي معلومات مُضللة عن نفسها، كتقديم (الملك) نفسه في قصة سيدنا إبراهيم، مستخدمًا ضمير الأنا (أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ)، إذ يقول سبحانه وتعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ}[البقرة: من الآية 258] وتقديم (فرعون) نفسه بالإله المعبود: {فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى}[النازعات:24]

المطلب الثالث: تشخيص إحدى شخصيات القصة لغيرها من الشَّخصيات.

والتشخيص من الوظائف التي تقوم بها الشَّخصيات داخل القصة، سواء جاء ذلك عن طريق حديثها عن نفسها – كما سبق – أو عن طريق حديثها عن غيرها من الشَّخصيات، إذ يتم التعريف بإحدى الشَّخصيات والإعلان عن سماتها على لسان شخصية أُخرى من شخصيات القصة .كما في تشخيص بنات شعيب لأبيهم، بالشيخ الكبير، في الآية الكريمة: {قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاء وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ}[القصص: من الآية 23] ويجدر الانتباه هنا إلى طرق تشكّل هذا الأسلوب داخل القصة القرآنية، والوظائف التي يمكن أن تؤديها هذه المعلومات، بالنظر إلى السياقات التي تقوم فيها بعض الشَّخصيات بإرسال المعلومات عن غيرها، والتي غالبًا ما تكون في سياق (الاستفهام والتعجب) أو (التوبيخ والذم والتحقير) أو (الثناء والمديح)، وفيما يلي بعض الأمثلة التوضيحية: 1- الاستفهام والتعجب:مثال ذلك: تشخيص زكريا لزوجه (عليهما السلام): {قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا}[مريم:8] وقد قصد المتكلم بهذا التشخيص {وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا} دعم سؤاله وتعجبه من حدوث هذا الأمر. وفي الآية الكريمة شاهد على تداخل هذه الأساليب المدروسة، إذ قدَّم المتكلم معلومات عن غيره، وعن نفسه {بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا} في سياق واحد. وفي قول يوسف (عليه السلام) لصاحبي السجن: {يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ} [القصص: 39] كان المتكلم قد شخّص لنا طبيعة معتقداتهم، وعرَّفنا بما كانت عليه هه الشَّخصيات من شرك بالله، وقد جاء ذلك في سياق الاستفهام الإقراري (27) والذي لا يخلوا أيضًا من دلالة التعجب والاستنكار.

1-الطلب والرجاء:

وقد ترسل إحدى الشَّخصيات المعلومات عن غيرها، في سياق الطلب والرجاء، ويكون هذا التشخيص في سبيل تعزيز هذا الطلب ودعمه، مثال ذلك: ابنة شعيب التي شخصت سيدنا موسى، كما جاء في هذه الآية الكريمة: {قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ} [القصص: 26] ففي حين طلبت من أبيها استئجاره، فقد بررت هذا الطلب بالمعلومات التي قدمتها عن هذه الشخصية، وتشخيصها لموسى بالقوي والأمين قد ساهم في بناء هذه الشخصية والتعرف عليها. ويأتي تشخيص يوسف (عليه السلام) بـ{الصِّدِّيق}، على لسان إحدى الشَّخصيات داخل القصة (ساقي الملك) في سياق الطلب الذي تقدم به هذا المتكلم لتأويل رؤيا الملك، فقال كما أخبرنا القاص سبحانه وتعالى: { يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ}[يوسف:46] وفي سياق الطلب أيضًا، تم تشخيص يوسف (عليه السلام) بالمُحسن، وعلى لسان (صاحبي السجن)، إذ قال سبحانه وتعالى: {وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانَ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي

خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ}[يوسف:36] هنا بنى المتكلم طلبه {نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ} على ما تتصف به الشخصية من حب للخير ومساعدة الآخرين {إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ} والمعلومات التي ترسلها هذه الشَّخصيات عن يوسف، لا تُعبر عن وجهة نظرها وموقفها منه، وحسب، بل يمكن الوثوق بها لبناء هذه الشخصية والتعرف على أبرز سماتها .ولنا أنَّ نلاحظ الآتي: أنَّ الطريقة التي صيغ بها هذا التشخيص على لسان صاحبي السجن، حين قالا: {إِنَّا نَرَاكَ..} دلّت على أنّ سمات الإحسان مُشاهدة في أفعال وأقوال هذه الشخصية.

تتكرر هذه المعلومة وتتأكّد، وبالطريقة نفسها {إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ} ولكن عبر مصدر آخر وشخصيات أخرى داخل القصة، هم (أخوة يوسف): {قَالُواْ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ} [يوسف: 78] وقد جاء التشخيص في سياق الطلب أيضًا، مع جهلهم بحقيقة هذه الشخصية.

يتم تأكيد هذه السمة عن طريق القاص سبحانه وتعالى: {وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} [يوسف:22] وبهذا فإنّ (الإحسان) سمة مهيمنة في هذه الشخصية؛ وقد قدّمها السرد القرآني من خلال عدة مصادر، وبأساليب متنوعة.

2-الثناء والمديح:

وقد ترسل إحدى الشَّخصيات معلومات عن غيرها في سياق الثناء والمديح، كما في قصة (طالوت) حين استنكر الجمع من بني إسرائيل أن يكون له الملك عليهم، فقال تعالى: {وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُواْ أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ}[البقرة: من الآية247] فجاء رد نبيهم على هذا النحو الذي شخص السمات الفكرية والجسدية لهذه الشخصية (طالوت): { قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاء وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}[البقرة: من الآية247] وفي قول (ساقي الملك) مخاطبًا يوسف (عليه السلام): { يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ }[يوسف:64] وقد جاء وصف يوسف بـ(الصِّدِّيق) - على لسان هذه الشخصية – لتصديقه بدعوة الأنبياء السابقين (عليهم السلام أجمعين)، وهو التشخيص المبني على الحوار السابق الذي دار بينهما في السجن، وعلى ما حكاه القاص - سبحانه وتعالى – من قول يوسف (عليه السلام):{وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ}[يوسف:38]

3- التوبيخ والذم والتحقير:

وقد ترسل إحدى الشَّخصيات المعلومات عن غيرها في سياق التوبيخ لها، كما في قوله تعالى من قصة موسى (عليه السلام): { فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ}[القصص: 18] إذ كان ذلك الرجل هو نفسه الذي استصرخ (موسى) بالأمس، فقد وبّخه (عليه السلام) قائلًا {إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ} فوصفه بـ(الْغَوِيّ): الضَّال(28) والـ(مُبِين): الواضح في ضلالته، فكأنَّها كانت لحظة استبصار واكتشاف بالنسبة لسيدنا موسى (عليه السلام)، وأصبح الضَّلال صفة ظاهرة لا تخفى في تلك الشخصية، فهو دائم المشاكسة والمشاكل مع أتباع (فرعون) .ومثال هذا التشخيص المباشر على لسان إحدى الشَّخصيات داخل القصة، ما جاء في قصة سيدنا لوط (عليه السلام)، في (سورة العنكبوت):{وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ * أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ}[العنكبوت:28، 29] ففي سياق الذم كان المتكلم (عليه السلام) قد شخّص الأبعاد المختلفة لهذه الشخصية الجماعية، فكشف عن طبيعة الانحراف الديني والأخلاقي لها {أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ}، كما صور أسلوبها وطريقتها في الحياة {وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ} والذي

يؤكّد عمق الانحراف الذي يعيشونه بشكل جماعي ومعلن. كما شخص قوله {وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ} المهنة التي تمتهنها، وهي (اللصوصية وقطع الطريق). وللتأكيد على الصفات المهيمنة لبعض الشَّخصيات؛ فإنَّ القارئ قد يستلهم - من أكثر من مصدر - معلومات متطابقة إلى حدٍّ كبير عن إحدى الشَّخصيات داخل القصة. وكما هو الحال بالنسبة (لقوم لوط) فإتيان الرجال وإتيان المنكرات والفواحش في تجمعاتهم، وممارسة اللصوصية وأعمال النهب – كما جاء في ذم لوط السابق لهم - هي سلوكيات إجرامية، تتطابق مع ذمهم ووصفهم بال(مُّجْرِمِين) على لسان ضيوف إبراهيم (عليهم السلام أجمعين): {قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ}[الذاريات: 32] كذلك يتكرر تشخيص (فرعون وقومه) ونعتهم بـ(الظَّالِمِينَ) على لسان أكثر من شخصية داخل القصة، كما في دعاء (زوج فرعون): {وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}[التحريم: من الآية 11] وفي دعاء سيدنا موسى (عليه السلام): {قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}[القصص: من الآية 21] وعلى لسان سيدنا (شعيب) بعد أن سمع ما جرى لموسى معهم (عليهما السلام): {قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} [القصص: من الآية 25] وإرسال معلومة واحدة عن إحدى الشَّخصيات - من أكثر من مصدر – هو أسلوب سردي قرآني تكمن وظيفته في الكشف عن السمة المهيمنة (29) لبعض الشَّخصيات. ويتشكل هذا الأسلوب التشخيصي في سياق (التحقير) إذ يكون الهدف من المعلومات التي تقدمها إحدى الشَّخصيات عن الآخر، هو التحقير والتقليل من شأنه .كما في وصف (فرعون) لسيدنا (موسى): {فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ} [الذاريات: 39] وتتكرر هذه الطريقة في وصف جميع أنبياء الله (عليهم السلام) على لسان المضلين من قومهم، وإلصاق صفة السحر والجنون بهم، كما يخبرنا الحق سبحانه وتعالى في (سورة الذاريات): {كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ}[الذاريات: 52] ويجدر الانتباه هنا إلى أنَّ تشخيص إحدى الشَّخصيات لغيرها - في سياق (التحقير) - لا يقدم بالضرورة المعلومات التي يمكن الاطمئنان إليها والاستناد عليها في البناء والتعرف على الشَّخصيات الموصوفة، وبالتالي لا بد من الانتباه إلى: مُرسل هذه المعلومات، وعلاقته بالشخصيات التي يصفها، إذ يترتب على ذلك ما يلي: - أن تكون المعلومات التي قام بإرسالها عن غيره، معلومات صادقة، يمكن الركون إليها في البناء، فهي تشخيص حقيقي وصادق لسماتها وأبعادها الحقيقية .

أن تكون تلك المعلومات غير صادقة، فهي تعبر عن وجهة نظر قائلها، وموقفه من تلك الشخصية الأخرى، لا أكثر، كما في الوصف السابق الذي لم يكن في حقيقته أكثر من تعبير عن موقف (فرعون) من (موسى) ومن الحق الذي جاء به (عليه السلام).

ومن جانبٍ آخر؛ قد تبدو للوهلة الأولى بعض المعلومات التي نستلمها عن إحدى الشَّخصيات من شخصية أخرى، معلومات حقيقية، إلاّ أنَّها ليست ثابتة ومطلقة، إذ طرأ التحول والتغيير على هذه الجوانب من الشخصية. ففي سياق التحقير، كان (فرعون) يتهكم ساخرًا من موسى (عليه السلام)، وهو يقدِّمه بوصفه شخصية تفتقر إلى الفصاحة والقدرة على التبيين(30) حين يقول: {أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ}[الزخرف: 52] وعلى الرغم من أنَّ القارئ قد تلقى هذه المعلومات نفسها عن شخصية موسى، من مصادر مختلفة، ومن خلال حديث الشخصية عن نفسها، حين قال (عليه السلام) مخاطبًا ربَّه، في حادثة تلقي الوحي الأولى : {وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ}[الشعراء:13] لكن اعتبار هذه المعلومات معلومات ثابتة عن شخصية (موسى) لا يتفق وتطور هذه الشخصية والتحولات الحاصلة لها من بعد حادثة الوحي الأولى ومع اصطفائه للنبوءة والتبليغ .

وهنا يمكننا القول أنَّ السرد القرآني يُعطينا المؤشرات والدلالات على تحول هذه الشخصية، وعلى تجاوز هذه الحالة التي كانت تشكو منها، وذلك من خلال الآتي:

أنَّ القارئ - على امتداد الأحداث اللاحقة كلها – سيجد أنَّ المتكلم الذي كان يؤدي خطاب التبليغ، ويخوض الحوار والجدل مع (فرعون)، ومع غيره من سائر بني إسرائيل، هو سيدنا موسى، وليس هارون (عليهما السلام).

أنَّ الأداء والأسلوب الخطابي والحواري لهذه الشخصية، كان يعكس بكل وضوح هذا التحول، وقدرته (عليه السلام) على الإفصاح والإبانة.

ومؤشرات هذا التحول شاخصة منذ المواجهة الأولى مع (فرعون)، وفي ذلك المشهد الحواري الذي قصه لنا القاص سبحانه وتعالى في سورة (الشعراء) بما يدلّ على أنّ الله قد هيأ موسى (عليه السلام) بمتطلبات هذه المهمة التي أوكلت إليه، لا سيما القدرة التامَّة على التبيين والتبليغ والجدل مع الخصم، إذ يبتدئ الحوار بهذا الطلب من جهة موسى وهارون (عليهما السلام):{أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ}[الشعراء:17] وهنا نجد (فرعون) وقد أعرض عن طلبهما، متعمدًا توجيه الكلام إلى (موسى) دون أخيه: {قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ}[الشعراء: 18] لقد أخذ (فرعون) في مهاجمة سيدنا (موسى) ومحاولة إرباك موقفه ! فذهب، أولًا إلى التمنن عليه بأفضاله، مع تذكيره بالذنب القديم الذي ارتكبه في حقهم: {وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ}[الشعراء: 19] غير أنَّ من الملاحظ أنَّ الأسلوب الذي اتبعه (فرعون) لم يكن ليربك موقف موسى(عليه السلام) أو يمنع انطلاق لسانه، فقد جاء جوابه سريعًا، وعلى النحو الآتي: {قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ * فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ * وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ}[الشعراء: 20 - 22] في هذا الرد أخذ موسى (عليه السلام) بالتسليم لخصمه في القضية التي طرحها، وقد تبنى مقولة الخصم دون ارتباك أو تهرب منها، فقال: {فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ * فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ} لكنه أعطى هذا الحدث بعدًا آخر، متجاوزًا هذه التهمة، حين قال (عليه السلام) {فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ} ليبيّن لخصمه كيف أنَّ الله قد تقبله – بعد ذلك الحدث – ووهبه الحكمة، واصطفاه للنبوءة والرسالة، فلم تعد هذه المسألة التي ذكرها (فرعون) هي القضية التي يصح أن يُقاضى عليها. ثم نجده (عليه السلام) وقد انتقل إلى القضية الثانية قائلًا {وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ} وبهذا الأسلوب الخطابي الاستنكاري، كان (عليه السلام) قد فَسَّر حقيقة الفضل الذي أراد فرعون أن يتمنن به، بخلافه وهو تعبيده لسائر بني إسرائيل، فقبوله بـ(موسى) وتربيته بينهم لم يكن - في حقيقته - من قبيل الإحسان، وإنَّما كان من قبيل تعبيد جميع بني إسرائيل له. وجواب موسى(عليه السلام) في هذه المواجهة الأولى، لا يدع مجالًا للشك على امتلاك هذه الشخصية الفصاحة والإيضاح والتبيين، إذ استطاع في القضية الأولى أن يدحض حجة خصمه ويقلل من شأنها، أمَّا في القضية الثاني فقد ردَّ حجة الخصم عليه، لذلك أعرض (فرعون) عن تلك القضايا، وانتقل إلى حديث آخر، مُتسائلًا: {قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ}[الشعراء: 23] من الواضح أنّ سؤال كهذا {مَا رَبُّ الْعَالَمِينَ} ليس عن جهل حقيقي بمن هو ربّ العالمين، لكن المتكلم يدعي الجهل طلبًا لإظهار وتوضيح ما هو معروف، والقصد من ذلك إرباك خصمه وإظهار عجزه عن الإفصاح والتبيين، فجاء الجواب من جهة سيدنا موسى، لا من جهة أخيه الذي كان حاضرًا في هذه المواجهة. ومن جانبٍ آخر فقد كان الجواب شاملًا ومبينًا؛ إذ اختزل كل ما سوى الله في إطار ربوبيته وألوهيته: {قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ}[الشعراء: 24] وفي هذا الجواب ما فيه من الحزم، والإيحاء بالقوة والثقة للطرف الآخر {إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ} وقد كان هذا الأداء على غير ما توقَّعه (فرعون) تمامًا، فالمتأمَّل في تداعيات هذه الحوار سيلحظ حالة الارتباك التي انتابت (فرعون) عندما أعرض عن (موسى) ليخاطب الملأ من حوله، قائلًا: {قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ}[الشعراء: 25]وقد أراد بتوجيه الخطاب للحاضرين من أتباعه، تحشيدهم للرد وخوض المواجهة معه ضدّ موسى (عليه السلام)، إلاّ أنَّ الصمت والوجوم ظل مخيمًا على الجميع، ولا يوجد في شخصيات هذا المشهد الذي رصده لنا القرآن الكريم من كان يمتلك القدرة على الإفصاح والتبيين، سوى سيدنا موسى (عليه السلام) .ومع كون (فرعون) قد أحال الرد

لهم، سنجد سيدنا موسى بكل ثبات وطمأنينة، يتوجه لتلك الأطراف قائلًا: {قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ}[الشعراء: 26] ولكي يكسر فرعون حالة من الصمت والعجز لدى أولئك الاتباع، فقد ذهب (فرعون) إلى إشراكهم في التهكم والسخرية من (موسى) قائلًا: {قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ}[الشعراء: 27] ولكن لا شيء من هذا كان يمنع انطلاق لسان (موسى) للتبليغ، إذ واصل (عليه السلام) تبيين هذا الأمر، متجاهلًا كل ما يفعله ويقوله هذا الخصم: {قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ}[الشعراء: 28] وهكذا نجد شخصية سيدنا (موسى) في العديد من المشاهد والوقائع داخل القصة، وهي تعطي القارئ المؤشرات اللازمة على التغير الحاصل لها، وأنَّه (عليه السلام) كان منذ أوَّل مواجهة قد تجاوز الحالة التي تم تشخيصها، قبل تكليفه بالرسالة والذهاب إلى (فرعون) . وقد سطر لنا القرآن الكريم مخاوف سيدنا موسى في هذا الدعاء الذي قال فيه: {قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي}[طه: 25 - 28] وكان من الطبيعي والمنطقي أنَّ الله قد هيأه تهيئة كاملةً لما يحتاج الإبلاغ عن رب العالمين من الإفصاح والقدرة على التبيين والإيضاح، وأنَّه سبحانه وتعالى قد استجاب هذا الدعاء الذي سطره لنا في هذه القصة، لكنه مع هذا لم يعلن بطريقة مباشرة عن استجابة الدعاء وحصول هذا التحول والتغير في شخصيته، وقد ترك القارئ ليراقب هذا التغير والنمو من خلال أفعال الشخصية وأقوالها اللاحقة، إذ كانت شخصية موسى (عليه السلام) في القصة القرآنية من الشَّخصيات التي تنمو وتتطور مع مرور الأحداث، وبشكل تدريجي. والحاصل هنا أنَّ التشخيص السابق على لسان (فرعون) {لا يَكَادُ يُبِينُ} والذي كان بعد بعثته (عليه السلام)، لم يكن ليقدم المعلومات الثابتة والمطلقة عن هذه الشخصية، فقد وصفه (فرعون) - بما يُعرف مِن حاله مِن قبل - بهدف السخرية منه والتقليل من شأنه (عليه السلام)، لا أكثر.

الخاتمة:

يكشف التشخيص المباشر عن أبرز السمات الداخلية التي تتسم بها الشخصية والتي تكشف عن البعد العلمي والمعرفي، إذ يتجاوز الشخصية ذاتها والتعريف بها، ويمنح القارئ الخبرة والمعرفة بالأسباب والعوامل التي تؤدي إلى اكتساب الناس عمومًا هذا البعد العلمي والمعرفي. كما أن تقديم الشَّخصيات من خلال نعتها لا بد وأن يكشف عن موقف القاص - سبحانه وتعالى – من تلك الشَّخصيات، ذلك أنَّ موقف القاص - سبحانه وتعالى – منها له أهميته في بناء أُفق التلقي لدى القارئ، وفي توجيه علاقته بتلك النماذج والشخصيات وتقييم أفعالها وأقوالها.

ومما سبق يتضح لنا أنَّ تعريف القاص للشخصيات وتقديمها لنا، في إطار التعليق على الأحداث والأفعال المتعلقة بها، له وظائف ودلالات مهمَّة، منها ما يأتي:

1-الاتساق بين الشَّخصيات و أفعالها: عندما يتم تقديم سمات الشخصية - خلال التعليق على الأفعال الصادرة منها – فإنّ ذلك يكشف عن التطابق التام بين سماتها وبين أفعالها، وهو ما يجعل الشَّخصيات داخل القصة القرآنية شخصيات (متسقة)(31) فلا تناقض بين ما تقوم به هذه الشَّخصيات، وبين المعلومات التي يعطينا القاص سبحانه حول تلك الشَّخصيات .

2- الكشف عن الأسباب والعوامل وراء حركة الأحداث في التجارب البشرية المسرودة في القرآن الكريم: وإلى جانب كون هذا النمط من التشخيص أسلوبًا من أساليب بناء الشخصية داخل القصص القرآني، فإنَّ ما يقدمه القاص من معلومات تتعلق بالشخصيات في إطار التعليق على ما يحدث من شأنه أن يكشف الأسباب اللطيفة وراء حركة الأحداث، والدوافع الخفية وراء الأفعال التي تقوم بها تلك الشَّخصيات.

3- إعطاء الشَّخصيات القدرة على التأثير في المتلقي: ذلك لأنَّ تقديم الشَّخصيات - عند التعليق التوضيحي على أفعالها - يسمح للقارئ بالتعرف عليها، وعلى تلك السمات البشرية، ضمن واقعٍ سلوكي ما وعملي ملموس، وهو ما يجعل شخصيات القصة القرآنية تترك انطباعًا واضحًا في ذهن المتلقي، وأثرًا في وجدانه، سواء أكان ذلك سلبًا أم إيجابًا.

نتائج الدراسة:

- أن المسكوت عنه يكمن في البنية العميقة للنص وليس خارجه، فثمة أحداث غير مسرودة سكت عنها النص القرآني، ولكنه ترك القرائن والآثار الدالة على وقوعها في الأحداث المسرودة وأوضح مثال ما مر بنا في قصة سيدنا سليمان (عليه السلام) والخيل.
- أن الأخذ بالمرجعيات الخارجية طريقة لإنتاج تأويلات خاطئة لا تتفق والمعنى المراد والحقيقي للنص القرآني، بالإضافة إلى أنها تفرض آلية إجرائية عميقة تقوم على أساس فصل حدث عن سلسلة الأحداث داخل القصة وربطه منطقيًا وسببيًا بأحداث خارجية روتها تلك النصوص الإسرائيلية.

توصيات الدراسة:

توصي الدراسة بجهود لا حقة للأبحاث التي تأخذ بعين الاعتبار الأنساق البنائية في تأويل القصص القرآني، والبعد الإجرائي والتطبيقي لمفهوم التماسك والترابط بحيث يصبح رصد الترابط المنطقي بين الأحداث والوقائع ركنا أساسيا في عملية القراءة والتحليل.

قائمة المصادروالمراجع:

القرآن الكريم

1- أسس النقد الأدبي الحديث، مجموعة كتاب، تر: هيفاء هاشم، وزارة الثقافة، دمشق، ط2، 2005م.
2- البرهان في علوم القرآن، محمد بن عبدالله الزركشي، تح: محمد ابو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، دط، ج3، د ت.
3- بناء الشخصية في حكاية عبرو والجماجم والجبل، جويدة حماش، مقاربة في السرديات، منشورات الأوراس، دط، 2007م.
4- بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، حميد لحميدان، المركز الثقافي، بيروت، ط1، 1991م.
5- الجامع لفنون اللغة العربية، عرفات مطرجي، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط1، 1987م
6- شرح المفصل، ابن يعيش أبو البقاء يعيش بن علي بن يعيش بن أبي السرايا، مكتبة المتنبي، القاهرة، 1990م.
7- قاموس السرديات، جيرالد برنس، تر: السيد إمام، ميريت للنشر والمعلومات، القاهرة، ط 1، 2003م.
8- القاموس المحيط، محمد بن يعقوب الفيروزبادي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط5 ،1996م.
9- لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، بيروت، ط1، 1993م.
10- مختصر التيسير في التفسير، بدر الدين أمير الدين الحوثي، مركز الشهداء، اليمن، ط1، 2012م.
11- معجم مصطلحات نقد الرواية، لطيف زيتوني، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط1، 2002م.
12- النص والخطاب والاتصال، محمد العبد، الأكاديمية الحديثة للنشر، القاهرة، ط1، 2005م.
13- نظرية الأدب، رينيه ويليك وأوستن وارين، تر: محيي الدين صبحي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، (د ط) 1987م.

الهوامش:

1 - معجم مصطلحات نقد الرواية، مصدر سابق: 114.

[2] - بناء الشخصية في حكاية عبرو والجماجم والجبل، جويدة حماش، مقاربة في السرديات، منشورات الأوراس، د ط 2007م: 56.

3 - معجم مصطلحات نقد الرواية، مصدر سابق: 54.

[4] - قاموس السرديات، مصدر سابق: 31.

[5] - كما "يعود الفضل في تفصيل الكلام عن الوظائف [التي تقوم بها الشخصيات داخل القصة] إلى الشكلاني الروسي (فلاديمير بروب) من خلال كتابه "موروفولوجيا الحكاية" وهو ينطلق أساسًا من ضرورة دراسة الحكاية اعتمادًا على بنائها الداخلي، أي على دلائلها الخاصة، وليس اعتمادًا على التصنيف التاريخي أو الموضوعاتي اللَّذَيْن قام بهما من سبقوه في البحث"* بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، مصدر سابق: 23.

[6] - السابق: 32 .

[7] - لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، بيروت، ط1 1993: ج(2) 629.

[8] - مختصر التيسير في التفسير، مصدر سابق: (ج2) 320.

[9] - السابق: (ج2)674 .

[10] - شرح المفصل، ابن يعيش أبو البقاء يعيش بن علي بن يعيش بن أبي السرايا، مكتبة المتنبي، القاهرة، 1990م: (ج3) 47.

[11] - مختصر التيسير في التفسير، مصدر سابق: (ج1) 434.

[12] - السابق: (ج1) 19.

[13] - أسس النقد الأدبي الحديث، مجموعة كتاب، تر: هيفاء هاشم، وزارة الثقافة، دمشق، ط2 2005م: 541.

[14] - يُنظر السابق: 542.

[15] - "السبب الذي لأجله تروى القصة، والموضوع الأساسي الذي تهدف إليه، إن الهدف من السرد يتم الإشارة إليه أو الإيحاء به عبر مجموعة من الملامح التقييمة التي تبين لماذا تستحق المواقف والأحداث المروية أن تروى ".

* قاموس السرديات، مصدر سابق: 150.

16 - معجم مصطلحات نقد الرواية،مصدر سابق: 32.

[17] - مثال ذلك قوله تعالى لسيدنا زكريا {وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ} [آل عمران: من الآية 21] وقال عن نبيه داوود { إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ }[ص: 18] .

18 - المونولوج "عرض لأفكار الشخصية وانطباعاتها أو مدركاتها دون وساطة من قبل الراوي " وهو خطاب غير مسموع، ويعد "وسيلةً إلى إدخال القارئ مباشرةً في الحياة الداخلية للشخصية"* قاموس السرديات، مصدر سابق: 95.

* نظرية الأدب، رينيه ويليك وأوستن وارين، تر: محيي الدين صبحي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، (د ط) 1987م : 235.

[19] - الرؤية الداخلية، هي " عرض ذهنية الشخصية" * قاموس السرديات،مصدر سابق: 94.

[20] - من شروط الحذف: أن تكون في المذكور دلالة على هذا المحذوف؛ إمَّا من لفظه أو من سياقه، وقد تكون مقالية وحالية * أنظر: البرهان في علوم القرآن، محمد بن عبدالله الزركشي، تح: محمد ابو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت (د: ط ت): (ج3) 111،وما بعدها.

21 - معجم مصطلحات نقد الرواية، مصدر سابق: 75.

[22] - مختصر التيسير في التفسير، مصدر سابق: (ج2) 324 .

[23] - النص والخطاب والاتصال، مصدر سابق: 212.

[24] - نفسه.

[25] - التضمين هو إعطاء الشيء معنى الشيء، وفي الآية الكريمة تم " تضمين (حقيق) معنى (حريص) ليفيد أنه محقوق بقول الحق وحريص عليه " * البرهان في علوم القرآن، مصدر سابق: (ج3) 338.

[26] - يُنظر: النص والخطاب والاتصال، مصدر سابق: 212، وما بعدها.

[27] - هو الذي يكون جواب الاستفهام فيه: (نعم) . كقول الشاعر: "هل الدهر إلاّ ساعةٌ ثم تنقضي # بما كان فيها من بلاءٍ ومن خفضِ" * الجامع لفنون اللغة العربية، عرفات مطرجي، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط1 1987م: 58.

[28] - القاموس المحيط، محمد بن يعقوب الفيروزبادي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط5 1996م: 1701.

[29] - السمة المهيمنة هي "سمة تتكرر كثيرًا، وتتعلق بشخصية، أو موقف أو واقعة، وتعبر عنها "* المصطلح السردي، مصدر سابق: 123 .

[30] - للفصاحة في اللغة معانٍ كثيرة، وكلها تقع في معنى البيان أو الظهور. يُقال: أفصح المتحدِّث عن مكنونات نفسه، أي بيَّنها أظهرها . الإفصاح لغةً هو الإظهار والتوضيح * الجامع لفنون اللغة العربية، مصدر سابق: 7.

[31] - تكون الشخصيات في القصة إمَّا شخصيات (متسقة) أو (غير متسقة)، وذلك وفق تطابق - أو تناقض - سماتها مع أفعالها *ينظر: قاموس السرديات، مصدر سابق: 30.